التاريخ الليبي القديم

من أقدم العصور حتى الفتح الإسلامي

(الجزء الأول)

تأليف: د. عبد اللطيف محمود البرغوثي

أعده للنشر: تامغناست

التاريخ الليبي القديم

من أقدم العصور حتى الفتح الإسلامي

(الجزء الأول)

تأليف: د. عبد اللطيف محمود البرغوثي

تصدير

بعد أن أقدم تعاقدت مع اليونيسكو في أُكتوبر - تشرين الأول سنة 1967م. للعمل في ميدان التاريخ بكلية التربية في الجامعة الليبية. قدمت إلى طرابلس الغرب حيث بدأت بأداء مهمتي التي كان من ضمنها تدريس تاريخ ليبيا القديم من بدايته حتى عشية الفتح الإسلامي سنة 643م. وظللت أُدرّس هذه المادة طيلة أربع سنوات متتالية (1967 - 1971 م.) واصلت البحث خلالها حول هذا الموضوع. وإذا صحت القاعدة القائلة إن خير طريقة لدراسة موضوع ما هي تدريسه. فإنني أعتز بأن أقول إنني اتبعت تلك الطريقة فأفدت واستفدت من الكشف عن عراقة تاريخ هذا الجزء من الوطن العربي الكبير؛ فما إن بدأت البحث عن حقائق التاريخ الليبي القديم. حتى بدأت تنفتح أمامي مجالات جديدة. واسعة سعة ليبيا ذاتها. ومثيرة بقدر ما في اكتشاف الحقيقة من متعة وإثارة.

وكان عليّ منذ البداية أن أُقرّر طبيعة البحث الذي ندبت نفسي للقيام به؛ فهل أُخصصه لدراسة جوانب محدودة من تلك الحقبة التاريخية أم أتصدى لتلك الحقبة بكاملها؟ وقلبت المسألة ذات اليمين وذات الشمال فوجدت أن مصلحة طلبتي تقتضي أن يكون البحث شاملاً لكل الفترة حتى يتسنى لكل من الطلبة أن تكون بيده نسخة من الكتاب في بداية

السنة الجامعية الأولى من التحاقه بكلية التربية. ونزولاً عند متطلبات المصلحة العامة بدأت البحث وفي ذهني أن يجيء جامعاً. قدر الإمكان. بين صفات الكتاب المقرر وصفات البحث المتخصص.

التعريف بليبيا

طبيعة ليبيا وسكانها في الوقت الحاضر:

كان الإغريق القدماء يسمون كل الشمال الإفريقي إلى الغرب من مصر ليبيا (Libya). والمناسبة الوحيدة قبل القرن العشرين التي أُطلق فيها اسم ليبيا على مناطق بعينها كانت حوالي 300م. عندما كون الإمبراطور ديوقلتيان ولايتي ليبيا العليا (Libya Superior) وليبيا الدنيا (Libya Inferior) في الجزء الشمالي من برقة. ولكن كلمة ليبيا كانت مقبولة دائماً كمرادف جغرافي لطرابلس أو بلاد البربر للدلالة على الجزء الأوسط من الشمال الإفريقي. ولم توحد ولاية طرابلس وولاية برقة إلا على الجزء الأوسط من الشمال الإفريقي. ولم توحد ولاية طرابلس وولاية برقة إلا سنة 1934م. عندما أكمل الإيطاليون عملية احتلالهم لهما وأسمياهما مستعمرة ليبيا (Libia). وبعد ذلك احتفظت المملكة الليبية المتحدة بهذا الاسم لدى استقلالها سنة 1951م. ضمن حدود شملت الولايات الثلاث: طرابلس وبرقة وفزان. ولقد ظل هذا الاسم معتمداً بعد إلغاء الدستور الاتحادي سنة 1964م. ونشوء ((المملكة الليبية)). وبعد ثورة أول سبتمبر سنة 1969م. وإلغاء النظام الملكي وإنشاء الجمهورية العربية الليبية.

وتتمتع ليبيا في الشمال بخط ساحلي على البحر الأبيض المتوسط يبلغ طوله ألفاً ومائتي ميل. وهو ساحل مكشوف في معظمه. قليل التنوع وخطر. وهي تشترك مع الجمهورية العربية المتحدة في الشرق في خط حدود

طوله ثمانمائة ميل كما تشترك مع الجمهورية التونسية في الغرب في خط حدود طوله مئتان وخمسون ميلاً ومع جنوب الجزائر في خط يبلغ طوله أكثر من ستمائة ميل. وهي في الجنوب الشرقي تشترك مع جمهورية السودان في خط حدود واحد كما تشترك في الجنوب مع جمهوريتي تشاد والنيجر.

وتشغل ليبيا ست عشرة درجة طولية (9° - 25°) وأكثر من أربع عشرة درجة عرضية (45" 18° - 33°) بمساحة تبلغ حوالي (680,000) ميل مربع تحلها في المرتبة الرابعة بين أكبر أربعة أقطار إفريقية. وهي إن قورنت من حيث المساحة بغيرها من البلدان زادت عن تكساس بضعفين ونصف الضعف وبلغت سبعة أضعاف بريطانيا العظمى وإرلندة الشمالية مجتمعين.

ويعتبر 95% من هذه المساحة صحراء وإن كان قسم من تلك الصحراء يتكون في الواقع من سهول استبس شبه صحراوية ومقفرة وقليلة التنوع.

أما الخمسة الباقية في المائة فتعتبر صالحة للاستغلال الاقتصادي وإن كان ما يزرع منها في الوقت الحاضر لا يتعدى ½ % من كامل مساحة البلاد مع العلم أنه يمكن مضاعفة تلك الرقعة المستغلة في الزراعة. ولا شك أن المناخ وتوفر الماء هما العاملان اللذان يجعلان مناطق الزراعة المستقرة مقصورة على الأحزمة الساحلية الضيقة وسلاسل التلال في شمالي منطقة طرابلس وفي برقة وفي بعض الواحات في الداخل. ويذكر بهذا الصدد أن ليبيا ليست فيها أنهار دائمة.

وفي القسم الشمالي من منطقة طرابلس يلتقي الشريط الساحلي الخصيب. الذي لا يزيد عرضه في أي مكان منه عن سبعة أميال والذي يتمتع بمناخ حوض البحر الأبيض المتوسط. مع سهل الجفارة الذي يسمى أحياناً ((بالصحراء المصغرة)). وينتهي هذا السهل عند حافة جبل نفوسة الشمالية الشديدة الانحدار. وجبل نفوسة هذا عبارة عن سلسلة من التلال

لا يتجاوز ارتفاعها ثلاثة آلاف قدم وتمتد على شـكل خط منحنٍ حتى تلتقي مـع البحر قرب مدينة الخمس. أما من الجنوب فإن الجبل يتدرج فيٍ الانخفاض حتى يتلاشـى في منطقة ريفية متكسرة تعرف باسم منطقة ((القبلي)) ولا تلبـث أن تندمج فـي هضبة الحمادة الحمراء الصخرية التي تمتد مسـافة مائتي ميل إلى الجنوب حيث تهبط إلى مسـتوى ثلاث من سلاسـل الواحات فـي غرب فزان هي واحات وادي الشـاطيء ووادي الآجال ومنخفض مرزق. وفي هذه الأودية الثلاثة تكون المياه الجوفية على عمق أقدام قليلة تحت السطح. وفي شـمال برقة يقوم الجبل الأخضر، على شكل درجتين ضيقتين صاعدتين من السـاحل، مكوناً هضبة يبلـغ ارتفاعها ألفي قدم. وهو خصيب ومغطي إلى حد معقول بالأشـجار والشـجيرات. أمّا في شرق برقة فإن التلال تنحدر نحـو مصر عبر منطقـة وعرة مقفرة هـي منطقة مارماريـكا. وفي جنوب برقة تنحدر المرتفعات لتتلاشـى فـي الصحراء الليبية التي هي أكبر صحراء حقيقيـة فـي العالم - وفي برقة ثلاث واحات رئيسـية هـي جالو والجغبوب ومجموعة واحات الكفرة الواسعة. وفي أقصى جنوب برقة وفزان تقوم جبال تبستي كحاجز بين ليبيا وإفريقيا الوسطى.

وإذا مـا ألقينـا نظرة على المنطقتـين المأهولتين في شـمالي ليبيا فإننا سنجدهما مفصولتين عن بعضهما بثلاثمائة ميل من الخلاء الصحراوي في منطقة سـرت التي تلتقي رمالها مع أمواج البحر الأبيض المتوسط. وتعتبر صحراء سرت هذه من أعظم الحواجز الطبيعية في العالم ولذلك فإن الرحلة بـين تونس وطرابلس أو بين برقة ومصر كانـت حتى الثلاثينات من هذا القرن، عندمـا عبـدت الطريق السـاحلية الليبية، أسـهل على المسـافر منها بين طرابلس وبرقة عبر صحراء سرت المقيتة.

وليس بين سلاسل التلال الليبية مرتفعات تكفي لصد المؤثرات المناخية المتضادة والناشـئة عن الصحراء من ناحية وعن البحر الأبيض المتوسط من الناحيـة الأخرى. ولذلك فإن الطقس الليبي يتميز بتغيرات مفاجئة وعنيفة في بعض الأحيان. ولذلك فإن الطقس الليبي يتميز بتغيرات مفاجئة وعنيفة في بعض الأحيان: فالمناطق الشـمالية تقاسـي في الشـتاء من العواصف

والرطوبة المزعجة، وربما تتسـاقط الثلوج على جبل نفوسـة والجبل الأخضر. وكثيراً ما تهبط درجة الحرارة في سبها بفزان في الشتاء إلى ما تحت الصفر. وبالرغم من أن التلال الشـمالية تتلقى عشـرين بوصة من المطر في السنة، إلا أن معظم تلك الكمية يتساقط بين شهري ديسمبر - كانون الأول، ومارس - آذار، على شـكل وابل غزير قصير الأمد مـا يجعل معظم المياه المتجمعة منـه تندفـع بعنف إلى البحر جارفة معها ما تصادفـه في طريقها من تربة سـطحية خصبة. ويقل سـقوط المطر كلما اتجهنا جنوباً، كما أن مفعوله التخريبي يـزداد. وفي فزان بالذات تذوِّب عواصف المطـر النادرة جدران الأبنية المشـيدة بآجر الطين وتسـبب فيضانات غير متوقعة ممّا يحمل الأهلين على أعتبـار مثل تلـك العواصف نقمة أكثر منها نعمة. وتتعـرض ليبيا كلّها أو جلها مرّة كل خمس أو سـت سنوات لجفاف يستمر في بعض الأحيان طيلة فصلين متتاليين من السنة.

أما رياح «القبلي» الجنوبية الحارة فقد تهب في أي وقت خلال السـنة وإن كان يغلب عليها أن تهب خلال ابريل – نيسـان ومايو – أيار ويونيه – حزيران وفـي نهاية الصيف. وهي عادة تجلب معها الغبـار والرمل الناعم من جنوب الجزائـر وتـؤدي إلى ارتفاع درجة الحرارة على السـاحل بثلاثـين أو أربعين درجة فهرنهايتيـة خلال سـاعات قليلة من هبوبها. وهي كذلك تحجب الشـمس وتتلف المحصـولات وتترك وراءها طبقات من الرمل الناعم في كل مكان حتى داخـل المنازل المقفلـة بإحكام. وفي منطقـة طرابلس يندر أن تسـتمر رياح القبلـي أكثـر من ثلاثة أيام، اما في فزان، حيث يشـتد أذاها، فإن خير ما يعبر عنهـا هو المثل الشـعبي القائل: «إن هبت رياح القبلـي طيلة اربعين يوماً - كفانا الله شرها – فإن الناقة تلقح دون ان يمسها الفحل».

وصيف ليبيا حار ورطوبته عالية فقد تصل على السـاحل في أغسطس – آب إلـى 90%. ولقد سـجلت بلـدة العزيزية الواقعة على حافة سـهل الجفارة الشـمالية أعلى رقم قياسـي عالمي للحرارة في الظل عندما وصلت درجة الحرارة فيها إلى °136 فهرنهايتية في سبتمبر – أيلول سنة 1932 م. ولكن التلال الشـمالية وخاصة الجبل الأخضر تتمتع بطقس معتدل ونسيم

منعش. وخلاصة القول إن طقس طرابلس يدعو للطمأنينة والرضا خلال معظم أيام السنة وطقس ليبيا عامة طقس صحي.

ومعظم الليبيين من العرب المسلمين الذين غمروا البلاد وأكسبوها عروبتها منذ القرن الحادي عشر للميلاد عندما زحفت عليها جموع قبائل بني هلال وبني سليم من مصر. وهنالك أقلية من البربر المسلمين لا نزيد نسبتهم عن 4% من مجموع السكان. وهم من نسل أبناء البلاد الأصليين الذين كانوا يسكنونها على وجه التحقيق منذ نهاية العصر الحجري القديم. ولا تزال أعداد منهم إلى الآن تعيش في منطقة طرابلس كمجتمعات زراعية صغيرة تنتشر قراها على أطراف جبل نفوسة بين يفرن ونالوت وفي زوارة على الساحل الغربي. وهم لا يزالون يخاطبون بعضهم البعض بلغة بربرية هي فرع من المجموعة اللغوية الحامية التي تنتمي إليها اللغة المصرية القديمة واللغة القبطية واللغة الصومالية واللغة الاثيوبية.

أما سكان جنوب برقة وفزان فهم خليط من العرب والبربر والزنوج الذين كان أسلافهم قد جلبوا كعبيد من وسط إفريقيا.

وبالنسبة للطوارق، فرسان الصحراء، الذين ينفرد رجالهم دون نسائهم بلبس القناع، على عكس ما هو مألوف لدى غيرهم من إخوانهم المسلمين، فإن أصلهم، كأصل إخوانهم البربر، لا يزال مسألة جدلية تتقدم عدد من المؤرخين بنظريات مختلفة حولها: فابن خلدون يقول: إن هؤلاء القوم كانوا أصلاً يعيشون في بلاد الشام وإنهم كانوا يعبدون الشمس وإنهم انحدروا من «مازغ» بن كنعان بن حام بن نوح. وهو يقسمهم إلى فرعين كبيرين تنتمي إليهما قبائلهم المختلفة. وهذان الفرعان هما البربر والطوارق. ويقول بعض المؤرخين إنهم كانوا يعيشون في الأصل في جنوب شبه جزيرة العرب ثم اضطروا للهجرة منها عبر مضيق باب المندب إلى الحبشة فوادي النيل. وهم يظهرون على النقوش المصرية القديمة تحت هذه الأسماء: برابرا (Barabra)، برابراتا (Baraberata)[1]، ليبو (Lebu) وأسماء أخرى سنتعرض لها فيما

1- Bereber - See also Encyclopaedia Britannica, William Benton (Publisher), London, 1970

بعد. وتدل صورهم على الآثار المصرية على أنهم قوم شقر. ويقول المؤرخ ف. ر. رُد (F. R. Rodd) إن أسرى ليبيين معينين ممن يظهرون في الصور والتماثيل المصرية القديمة هم من البربر.

ومن المؤكد أن لغة هؤلاء القوم المنتشرين من مصر إلى المحيط الأطلسي ومن ساحل البحر الأبيض المتوسط إلى السودان تظهر فيها خصائص تتشابه مع خصائص اللغات السامية بالرغم من أنها لغة حامية الأصل وإن كانت تختلف بعض الشيء عن اللغة الحامية التي انقرضت منذ أمد بعيد. وتجدر الإشارة هنا إلى أن بعض الأسماء في جزر الكناري هي من هذه اللغة ذاتها.

وذهب عدد آخر من المؤرخين إلى ربط هؤلاء القوم الشقر من البربر بالأجناس الأوروبية القديمة من مثل الإيبيريين (Iberians) والكلت (Celts).

وبقدر ما عليه أصلهم من غموض فإن وقت قدومهم إلى الشمال الإفريقي والمكان الذي قدموا منه لا يزال سراً غامضاً كذلك. ويقول الكاتب الفرنسي جوته (Gautiers) إنهم انتشروا دواخل إفريقيا قبل بدء عصر المعادن[2]. ومن المؤكد أن قبيلة زناتة ظهرت في الشمال الإفريقي مع ظهور الجمل في العهد الروماني وانتشرت كقبيلة من البربر الرحل في الصحراء الوسطى والغربية قبيل الفتح العربي.

ومن الجدير بالملاحظة أن الطوارق لم يكونوا يلبسون القناع خلال العهدين الروماني والبيزنطي. ويعتقد رُد (Rodd) أنهم تبنوا هذه العادة بين القرنين الميلاديين السابع والحادي عشر إثر اندحارهم أمام المد العربي إلى الأقسام الجنوبية من الصحراء حيث تكثر العواصف الرملية التي ألجأت رجالهم، لكونهم يتعرضون للعواصف أكثر من النساء اللواتي يقمن عادة يقمن عادة في بيوتهن، إلى لبس الأقنعة اتقاء لشر الرمال. ومنذ ذلك الحين حتى وقت قريب كان الطوارق ملوك الصحراء غير المتوجين. فلم تكن أية قافلة تجارية ولا أية حملة علمية تستطيع عبور الصحراء دون حماية منهم.

2- Wright, John, Libya, London, Ernest Benn Limited, 1st Edition 1969, pp 21 – 25.

وقبائل الطوارق متعددة بصورة معقدة كتعقيد تاريخهم. فالبعض منهم حافظوا على نقاوة دمهم فلم يختلطوا بغيرهم، بينما اختلط البعض الآخر مع شعوب إفريقية أُخرى. ومع ذلك فقد ظلوا جميعاً يشتركون في عادات وتقاليد خاصة بهم. وينتسب الطوارق إلى الأم كما أن ابن الأخت هو الذي يخلف خاله في مشيخة القبيلة. وهم إجمالاً يقسمون إلى اربع طبقات هي: طبقة الإمفوكالن أي السلاطين وطبقة الإهكارن أي النبلاء والأمراء وطبقة الإمغادن أي الأتباع. وأخيرا طبقة الإكلان أي العبيد. وأبناء الطبقتين الأولى والثانية هم الطوارق الحقيقيون أي الذين ينحدرون من أم نبيلة بغض النظر عن الطبقة التي ينتمي إليها الأب.

أما أبناء الطبقة الثالثة فهم غالباً العبيد الذين أعتقهم أسيادهم وحرروهم ولكنهم ظلوا أتباعاً أو موالي لأسيادهم وقد يسمونهم أحياناً باسم طبقي آخر هو «إدرفن». والعبيد بالطبع هم تلك العناصر التي اسرها الطوارق إما من محيطهم وإما من المناطق الإفريقية المجاورة واستعبدوها في قضاء حوائجهم[3].

ويذهب أنطوني سلاري (Anthony Sillery) إلى رد أصل الطوارق للحاميين الشماليين الذين يقول إنهم يشملون البربر والطوارق والفلاني (القاطين في غرب إفريقيا) وفئة قديمة من البشر تعرف باسم جوانتشي (Guanche) سكنت جزر الكناري[4].

والطوارق إجمالاً قوم طوال القامة والوجه، رقاق البشرة، يتميز أطفالهم في الغالب بالشعر الأشقر.

وتعتبر واحتا غدامس وغات مشارف ديار الطوارق التي تنتشر في أنحاء فزان الغربية وفي أجزاء أخرى من الصحراء حتى تمبكتو على نهر النيجر. وهم يتكلمون لهجة بربرية. ومنهم نسبة كبيرة ممن يجيدون استعمال الشكل المكتوب من لغة الطوارق وهو الشكل المعروف باسم التفيناغ

3- Baker, Richard St. Barber, Sahara Challenge, Lutterworth Press, London, 1954, pp. 64 – 65

4- Sillery, Anthony, Africa, a social Geography, Oxford, 1961, p. 9

(Tifinagh).

أما التيبو (Tebu) ذوو البشرة السمراء الذين يقطنون جنوب برقة وفزان فالمعتقد أنهم ينتمون إلى سكان الصحراء القدماء الذين أسماهم المؤرخ الإغريقي هيرودوتس «التروجلودايت» ووصفهم بالسرعة الفائقة في العدو وبأنهم يتكلمون لغة «كزعيق الخفافيش». والملاحظ أن التيبو المعاصرين يتميزون بقدرتهم على التحمل. وقد ذكر المكتشف الألماني فردريك هورنمان (Hornmann Frederick) أن العرب وصفوا كلام التيبو بأنه «كزقزقة العصافير». ويبدو من ذلك أن نفس الجنس البشري هذا حسنوا لغتهم وجملوها بحيث تحولت مما يشبه زعيق الخفافيش إلى ما يشبه زقزقة العصافير خلال الاثنين والعشرين قرناً التي انقضت بين زيارة هيرودوتس وزيارة هورنمان. وتلك اللغة نفسها هي الآن إحدى لهجات السودان الجنوبي. ومما يرجح هذا الرأي أن التيبو قوم صغار الأجسام، خفاف البنية والحركة، يتميزون بأنف يكاد يكون أقنى، وبشفاه رقيقة وشعر سبط. وهم مسلمون ويعيش معظمهم في أكواخ ذات سقوف مخروطية دقيقة.

ولعل أغرب جماعة في ليبيا هم الدوّادة الذين يعيشون – ويبدو أنهم عاشوا كذلك منذ قرون – في ثلاث قرى في رمل الدوّادة بين وادي الآجال ووادي الشاطئ في غربي فزان. ويعيش هؤلاء الدوّادة الذين يبلغ عددهم أربعمائة نفس على نوع من الدود يوجد في ثلاث من البحيرات المالحة التي مازالت، بمعجزة، تقوم بين كثبان الرمل. وقد ذكر جيمس ويللاّرد، أحد الكتاب الأجانب القليلين الذين تمكنوا من زيارة الدوّادة، أن الديدان التي يعيشون عليها إنما هي نوع من قريدس المياه المالحة المعروف علمياً أرتيميا سلينا (Artemia Salina). وهم يجففونه ويسحقونه ثم يحولونه إلى معجون يجفف في الشمس ويصبح صالحاً للاستعمال كغذاء.

أما عدد السكان في ليبيا فإن إحصائيات وزارة التخطيط تشير إلى أنهم كانوا (1,559,399) نسمة وفقاً لتعداد سنة 1964م. ومعنى ذلك أن الكثافة السكانية لهذه البلاد هي 2.3 للميل المربع. وفي سنة 1967 م. قدر عدد السكان بـ (1,700,000) نسمة يعيش 60 % منهم في

مدينة طرابلس (235,000) وفي مدينة بنغازي (140,000) وأربع عشرة مدينة وقرية كبيرة أُخرى – ويزيد عدد سكان القسم الشمالي من منطقة طرابلس عن مليون نسمة بينما لا يزيد عدد سكان فزان عن (70,000) نسمة أي بمعدل شخص واحد لكل ثلاثة أميال مربعة. وقد يبدو غريباً أن تعلم أن نسبة البدو الرحل وشبه الرحل في ليبيا تصل إلى حوالي سدس مجموع السكان فقط.

وكانت أكبر الجاليات الأجنبية في ليبيا الجالية الإيطالية؛ وكان الإيطاليون قليلين في برقة ولكنهم كانوا يعدون أكثر من ثلاثين ألفاً في منطقة طرابلس. كان يعيش خمسة آلاف منهم في مزارع قريبة من مدينتي طرابلس ومصراته بينما تعيش بقيتهم في مدينة طرابلس نفسها؛ تلك المدينة التي توجد فيها أيضاً جالية مالطية صغيرة قديمة. وبعد قيام ثورة الفاتح من سبتمبر 1969 بقليل رحّلت حكومة الثورة الليبية جميع الإيطاليين عن ليبيا. وتوجد في كل من بنغازي وطرابلس جالية يونانية صغيرة وبقية من جالية يهودية. وبالإضافة لكل تلك الجاليات يعيش في ليبيا كثير من رجال النفط ورجال الأعمال والمدرسين والخبراء والمستشارين مع أُسرهم؛ وينتمي هؤلاء إلى عدة جنسيات. وقد تزايد عدد العرب غير الليبيين في ليبيا بعد قيام ثورة الفاتح من سبتمبر وسير ليبيا في الاتجاه العربي.

الفصل الأول

ليبيا في عصر ما قبل التاريخ

اسم ليبيا ودلالته

توصل أحد أبناء ليبيا في بحث له عن أصل هذه التسمية إلى النتيجة التالية: «ليبيا اسم عريق في قدمه... يرجع إلى أكثر من ألفي سنة قبل الميلاد. يستحيل تاريخياً ولغوياً الجزم بصحة رسمه «لوبيا» أو» ليبيا» على أحد الوجهين دون الآخر، إلا بالاقتصار تحيّزاً على لغة واحدة في عصر بذاته، وليس هذا ممّا يرضي منطق العلم ولا فضول العلماء. وهو الآن شعبياً ورسمياً ودولياً قد شاع وقبل وتأكد على أنّه «ليبيا»[5].

ويجدر بنا منذ البداية أن نشير إلى أن المدلول الجغرافي لأسماء الأقاليم والدول لم يكن في القديم محدداً واضحاً كما هو عليه الحال في أيامنا هذه بل كانت البلاد تسمى غالباً باسم الشعب الذي يسكنها. وواضح أن الشعوب مرت بعصور بدواة تختلف طولاً وقصراً وأن الشعب، أي شعب، في طور بداوته لم يكن ليستقر ضمن حدود جغرافية ثابتة، ممّا يجعل رقعة البلاد التي يسكنها أصلاً تمتد أو تتقلص تبعاً لتحركاته وانتصاره أو اندحاره. ومن الناحية الأخرى فإن مسألة الانتماء لوطن معين أو أمة معينة هي ظاهرة حضارية متأخرة لا تتولد عند الأفراد والجماعات إلا بعد خروجهم من دور البداوة، وتحررهم من الرابطة القبلية التي تحتم عليهم أن يكون ولاؤهم وانتماؤهم للقبيلة وليس للوطن أو الأمة.

وعلى هذا فإن الدلالة الجغرافية لاسم بلد من البلدان كانت تختلف من عصر لآخر قبل عصر الاستقرار؛ فالمصريون القدماء كانوا يعتبرون ليبيا الصحراء المجاورة لهم من الغرب والتي تمتد بعيداً حتى «عالم الأموات»، بينما استعمل المؤرخ الإغريقي هيرودوتس (القرن الخامس قبل الميلاد) كلمة ليبيا ليدل بها مرة على كل الشمال الإفريقي الواقع إلى الغرب من مصر، ومرة

5- بازامه، محمد مصطفى، ليبيا هذا الاسم في جذوره التاريخية، اللجنة العليا لرعاية الفنون والآداب، وزارة الأنباء والإرشاد، بنغازي، 1963، ص 59

على برقة فقط، ومرة على إفريقيا عامة. ومن ناحية أُخرى فإن تحركات الأفراد والجماعات كانت طليقة إلى حد كبير ولا تخضع لأية قيود غير القيود التي كانت تفرضها عليها مصالحها وظروفها. وستتضح هذه الحقيقة فيما بعد عندما نلاحظ مثلاً مدى الحرية التي كانت القبائل الليبية القديمة تتحرك بها عبر الحدود الليبية – المصرية. ولهذه الحقيقة أهمية بالغة، كما سنرى فيما بعد، لما كان لها من أثر على المنطقتين. ثم هنالك مسألة أخرى هي اتساع ليبيا الهائل وغلبة الطبيعة الصحراوية عليها مما يجعل تعيين خط حدود لها (في الجنوب مثلاً) بصورة قاطعة وثابتة أمراً بالغ الصعوبة حتى في هذا القرن العشرين فما بالك في الأزمنة الموغلة في القدم؟ وإذن فإن كلمة ليبيا لم تحمل دلالتها الجغرافية الحالية إلا في مطلع هذا القرن – أما في الماضي فقد غلب استعمال كلمة «أنطابلس» (بنطابولس) أي المدن الخمس على المحافظات الشرقية في برقة، وكلمة أطرابلس (طرابلس) أي المدن الثلاث على المحافظات الغربية في منطقة طرابلس؛ وكان تاريخ هاتين المنطقتين يمثل إلى حد كبير تاريخ ليبيا بمفهومهما الجغرافي المعاصر – أما الدواخل أي المحافظات الجنوبية في فزان فقلما سجل تاريخها بنفس المستوى الذي سجل به تاريخ المنطقتين السابقتين بل قلما حفظ من حقائقه ما يكفي لرسم صورة مرضية لأحوال هذه المنطقة في مراحل تاريخها القديم – ولهذا السبب فإن الدارس أو الباحث لن يستطيع أن يفي تاريخ هذه المنطقة حقه – والرجاء معقود على أن ينشط علم الآثار في إجراء الحفريات والدراسات الضرورية لفتح مغالق تاريخ هذه المساحة الداخلية الواسعة من ليبيا.

ليبيا في أقدم عصورها

﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ * وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾. الآيتان 31/30 من سورة الأنبياء.

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾. الآية 99 من سورة الأنعام

﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ﴾. الآية 24 من سورة يونس

لأسباب مختلفة أهمها المساعدة على فهم حالة ليبيا في عصور ما قبل التاريخ، وفهم ما كانت عليه صحراؤها من خصب وازدهار، قبل أن تصاب المنطقة بالجفاف، وتتحول إلى صحراء شاسعة قاحلة يجد الدارس أنه لابد أن يمهد لدراسته بالحديث عن الكرة الأرضية وتكوينها والأحوال الجيولوجية التي مرت بها، وما ترتب على ذلك من تغير في الأرض نفسها، وفي أجوائها ومناخها، مما أدى في النهاية إلى ظهور الحياة والإنسان والمجتمع البشري والتاريخ.

وتتلخص إحدى النظريات العلمية بهذا الشأن في أن الأرض والكواكب السيارة الأخرى كانت جميعها، بما فيها الشمس، أُم المجموعة، كتلة واحدة كبيرة ملتهبة تدور حول نفسها. ونتيجة لسرعة دورانها راحت تنفصل عنها أجزاء صغيرة تبدأ بالدوران حول ذاتها وحول الكتلة الأم في الوقت ذاته. ثم أخذت كرتنا الأرضية تبرد شيئاً فشيئاً فنجم عن ذلك تكون قشرة يابسة يحيط بها جوّ كثيف مشبع بالرطوبة. ولم تلبث الأبخرة في ذلك الجو أن تكثفت ونزلت على شكل أمطار غزيرة تجمعت محيطات وبحاراً وبحيراتٍ وأنهاراً. وأدى استمرار درجة الحرارة في الهبوط إلى برودة الأرض، وبالتالي إلى تقلصها، فنجم عن ذلك ارتفاع أماكن هي الجبال والهضاب والتلال،

وانخفاض أماكن أخرى هي السهول والأودية والقيعان. ومن الماء بدأت تظهر الأحياء الأولى وتتطور عبر العصور الطويلة حتى وصلت إلى ما هي عليه الآن. واستغرق هذا التطور مدة يقدرها علماء الجيولوجيا بما يزيد عن أربعة آلاف وخمسمائة مليون سنة هي عمر الأرض. ولكن هؤلاء العلماء لا يستطيعون أن يتتبعوا بدرجة كافية من الدقة سوى الستمائة مليون سنة الأولى من عمرها. تلك الفترة التي سبقت تصلب القشرة الأرضية.

أما علماء التاريخ الذين يعتمدون على الاكتشافات الأثرية وعلى النقوش والكتابات التي خلفتها الحضارات القديمة. فهم لا يستطيعون التوغل في الماضي إلى أكثر من ستة آلاف سنة بينما يستطيع زملاؤهم علماء الجيولوجيا أن يصوروا لنا بكثير من التفصيل قصة الأرض قبل بدء التاريخ بستمائة مليون سنة. معتمدين في ذلك على نوع الصخور وعلى ما تحويه من بقايا نباتات وحيوانات متحجرة.

وبالرغم من أننا لا نعرف سوى القليل عن ثلاثة آلاف المليون من السنين التي انقضت على تصلب القشرة الأرضية. فإن الحياة بأشكالها البدائية الأولى لابد أن تكون قد استغرقت في تطورها عدة ملايين من السنين قبل أن تصل إلى مستوى الأشكال المتحجرة الموجودة في كثير من الصخور والتي يرجع تكوينها إلى ما قبل ستمائة مليون سنة. ولم تظهر الحيوانات الفقرية الأولى – وهي أنواع بدائية من الحيوانات التي تشبه الأسماك – إلا بعد انقضاء مائة مليون سنة أخرى. أما الأعشاب فلم تبدأ بالظهور إلا قبل ما يزيد قليلاً عن أربعمائة مليون سنة. والحيوانات البرمائية قبل حوالي ثلاثمائة وخمسين مليون سنة.

ويرجع تاريخ ظهور الثدييات – ومنها الإنسان الذي هو أرقاها بفضل عقله – إلى ما يقل قليلاً عن مائتين وخمسين مليون سنة. ويقدر المختصون أن الإنسان نفسه إنما خرج إلى حيز الوجود خلال مائة المليون سنة الأخيرة.

وجدير بالملاحظة أن التطور الحياتي لم يستمر سلساً دون انقطاع؛ فقد نشأت بعض النباتات والحيوانات وتطورت لتنقرض نهائيا بعد ذلك بملايين

السنين. بينما بقي البعض الآخر واستمر دون تغير يذكر.

ولقد نتج عن التغيرات التي طرأت على القشرة الأرضية تغيرات هامة في جغرافية الكرة الأرضية ومناخها. وهذه بدورها أثرت في تطور النباتات والحيوانات وفي توزيعها الجغرافي.

ويستطيع علماء الجيولوجيا بالاعتماد على الصخور وما تحويه من متحجرات أن يكشفوا عن النمط العام لتطور النباتات والحيوانات. وعن نشوء المحيطات والقارات وسلاسل الجبال والأنهار والتغيرات المناخية؛ فنحن نعرف من الأبحاث الجيولوجية أن الأسد ووحيد القرن والفيل وفرس النهر كانت تسرح في يوم من الأيام في بلاد هي خلو منها الآن مثل بريطانيا. كما نعرف أن قمة إفرست – حيث اكتشفت حيوانات بحرية متحجرة – تتكون من صخور كلسية تكونت أصلاً كرواسب تحت سطح البحر.

الصحراء الليبية في عصر ما قبل التاريخ

تزيد مساحة الصحراء الليبية عن 1,500,000 كم^2. وهي تشكل الجزء الأوسط من الصحراء الإفريقية الكبرى – وهذه الصحراء لم تكن طيلة الوقت صحراء قاحلة كما هي الآن بل كانت في وقت ماضٍ تتمتع بمناخ دافئ ممطر جعلها مليئة بالحياة النباتية والحيوانية. ولعل اكتشاف النفط مؤخراً فيها هو خير إثبات لما نقول إذ إن من المعروف أن النفط ناتج عن مواد عضوية (نباتية وحيوانية) غمرت في باطن الارض فتحولت إلى نفط نتيجة لأحوال معينة من الضغط والحرارة. ونحن إذا ألقينا نظرة واحدة على عصر البليستوسين (Pleistocene)[6] الذي بدأ قبل مليون سنة واستمر طيلة مليون سنة تقريباً سنلاحظ أنّه تميز بتغيرات مناخية حادة. وبظهور مخلوقات تشبه القرود. ولكنها كانت ذكية واستطاعت أن تنمي ذكاءها إلى حد أنها بدأت تسير معتدلة على القدمين. وصنعت أدوات حجرية كانت تقطع بها ما تقتله من حيوانات؛ فوضعت بذلك بداية الانتقال إلى مرحلة الإنسان الأول. وسنلاحظ أن علماء الجيولوجيا يميلون إلى الاعتقاد أن إفريقيا كانت موطن

6- انظر العصور الجيولوجية في الملحق (ا).

هذا الإنسان الأول وأنه انتشر منها إلى آسيا ثم إلى أُوروبا. وإذا نحن ألقينا نظرة أخرى على العصر الجيولوجي الحديث «الهولوسين» (Holocene)، الذي يبدأ قبل عشرة آلاف سنة، سنلاحظ أن الإنسان تعلم حوالي منتصف هذا العصر كيف يستأنس الحيوانات ويزرع النباتات. وإذن فإن ما نعرفها اليوم بالصحراء الليبية كانت خلال العصر الحجري القديم والمتوسط تعج بالنباتات والحيوانات والناس. أما كيف أقفز ذلك البستان وتحول إلى بحر قاحل من الرمال، فإن علماء الجيولوجيا يشيرون إلى أن عصر الهولوسين تميز بتزايد الجفاف في مناطق مختلفة من الأرض وخاصة في شمال إفريقيا والشرق الأوسط. وأدى استمرار تزايد الجفاف إلى تكوّن الصحاري الحالية في العالم، وإلى هجرة إنسان وحيوان تلك الصحاري، وانقراض نباتاتها. والذي يلفت النظر فيما يتعلق بتكوّن الصحاري، هو أننا إذا تصفحنا مصور العالم بادئين بالصحراء الإفريقية الكبرى سنجد أنها تتكون من عدة صحاري متجاورة: فالصحراء الكبرى الأولى في الغرب والصحراء الليبية في الوسط، ثم تأتي صحراء النوبة إلى الجنوب والصحراء الغربية في مصر. وإذا اتجهنا شرقاً فإنا سنجد الصحراء العربية أمامنا. وسنجد أيضاً أن هذا الحزام الواسع، الذي أصبح مجدباً نتيجة لما حل بأجوائه من جفاف حاد متزايد خلال عصر الهولوسين، يستمر في الامتداد شرقاً فيعبر سوريا والأردن والعراق وإيران وتركستان إلى أن ينتهي في صحراء غوبي في الصين.

والصحراء الليبية ليست كلها صحراء رملية بل تقوم فيها بعض السلاسل الجبلية فهناك مثلاً قمة بركان :أم الكوسي التي يبلغ ارتفاعها (11,204) أقدام، وتقوم بين الجبال مرتفعات صخرية تعرف بالحمادات، وسهول مكسوة بالحصى، وكثبان رمل متنقلة، وتخترق المنطقة كلها وديان جافة تشهد أنها كانت يوما من الأيام مجاري أنهار، ويشهد بعضها بعمقه وعرضه الكبيرين على قوة الأنهار التي كانت تتدفق فيها، ويؤيد هذا الاعتقاد بوجود أنهار في الصحراء في عصر ما قبل التاريخ وجود رسوم حيوانات مائية كالتمساح محفورة أو مصورة على الصخور، ولابد أن تلك الأنهار كانت تؤلف شبكة مائية واسعة ربما كانت تتصل بنهري النيل والنيجر وبحيرة تشاد.

ولابد كذلك أن بعض تلك الأنهار لا يزال جارياً تحت الأرض كمياه جوفية تمد الواحات والآبار الارتوازية بالماء الذي هو سبب الحياة في هذا الجزء من البلاد.

ولقد دلت الشواهد الجيولوجية على أن الصحراء الكبرى كانت في عصر البليستوسين أقل جفافاً مما عليه الآن؛ ولذلك فإن الصحراء الليبية كانت في أواخر ذلك العصر تعج بالنباتات والحيوانات والبشر. تكسو معظم رقاعها أدغال تكفي نباتاتها واشجارها لتغذية أضخم الحيوانات التي عاشت على وجه البسيطة، تشهد بذلك كومة عظام المستدون (Mastadon) الهائلة، الموجودة حالياً في قسم التاريخ الطبيعي بمتحف السراي الحمراء في طرابلس، والتي كانت قد اكتشفت في صحراء سرت الحالية. والمستدون حيوان يدل هيكله على انه كان يضاهي في حجمه الفيل الكامل النمو، وله أربعة أنياب طول الواحد منها ثمانية أقدام. ولما كان لا يأكل سوى النباتات فلابد أنه كان يستهلك أوراق شجرة كاملة في الوجبة الواحدة؛ ومع ذلك فقد أمكنه أن يعيش في هذه الرقعة التي نسميها اليوم الصحراء الليبية. وقس على هذا المثال عشرات الأمثلة لحيوانات أخرى متعددة ومتنوعة من مثل الفيل والزرافة والإيل ووحيد القرن وفرس النهر والنعامة. وقد كسا سكان هذه المنطقة جوانب آكام كاملة برسوم وأوصاف حيوانات منطقتهم عثر على عدد لا بأس به منها، وما يزال يعثر على المزيد منها في مناطق متباينة من الصحراء، وتلك الرسوم في معظمها هي لحيوانات انقرضت في الصحراء ولم يبق منها بعد سنة 2500 ق.م، سوى بعض الزرافات والنعامات التي لا تزال أعداد منها تعيش حتى يومنا هذا.

المخلفات الفنية

كان الرحالة الألماني بارث أول من عثر على النقوش الصخرية في وادي الزيغن (Ellissghen) غربي مرزق سنة 1850م، ثم توالت الاكتشافات على أيدي الرحالة المختلفين والبعثات العلمية المختلفة فاكتشف رسوم أخرى في وادي الآجال، والمكنوسة، وفي جبل زنككرا جنوبي جرما، وفي وادي برجوج غربي فزان، وفي جبل غنيمة في شرق فزان وعلى جميع السطوح الصخرية

من جبل نفوسة شمالاً إلى هضبة تسيلي جنوباً. وهضبة تسيلي تقع في الشمال الشرقي من الهجار وتمتد إلى داخل حدود فزان الشرقية. وقد قام العالم الفرنسي هنري لوت بحملة إليها سنة 1956 م. واستطاع هو وزملاؤه خلال ستة عشر شهراً قضوها في الهضبة أن يستنسخوا «المئات والمئات من الجدران الصخرية المرسومة والتي تصور الأشكال البشرية والحيوانية بالآلاف... في أعظم متحف فني لما قبل التاريخ في العالم كله»[7].

والواقع أن الرسومات والصور والنقوش الصخرية تملأ أرجاء الصحراء الليبية بل الصحراء الإفريقية الكبرى؛ فبالإضافة للمواقع التي اكتشفت في فزان، اكتشفت جبل عوينات[8] جنوبي شرق برقة رسومات كثيرة على جوانب الكراكير (الأودية) بعضها يرجع إلى ما قبل التاريخ والبعض الآخر يرجع إلى العصر التاريخي. ولا تزال هنالك مواقع كثيرة تنتظر الكشف والدرس.

ولقد استطاع العلماء المختصون، على ضوء ما تم اكتشافه حتى الآن، أن يقسموا رسومات وصور ونقوش الصحراء حسب موضوعاتها إلى أربع مجموعات رئيسية:

1- المجموعة الأولى وتمثل الحيوانات التي يستلزم وجودها كميات كبيرة من المياه والحشائش كالمستدون والفيل وفرس النهر والتمساح، أو الحيوانات المفترسة التي يستدعي وجودها وجود حيوانات كثيرة أخرى من الأنواع التي تعيش على النباتات، من مثل الأسود والفهود والنمور.

7- لوت، هنري، لوحات تسيلي، قصة لوحات كهوف الصحراء الكبرى قبل التاريخ، مكتبة الفرجاني، طرابلس، ليبيا، الطبعة الأولى، بيروت، نوار (مايو) 1967، ص 8-9

8- - جبل عوينات هو كتلة جبلية مساحتها 1500 كم2، يقوم في الصحراء الليبية عند تقاطع خط عرض 22 ° شمالاً مع خط طول 25 ° شرقاً ويبلغ ارتفاعه 6132 قدماً وكأنه جزيرة في بحر من الرمال. وفيه ثمانية آبار صخرية معروفة تمتلئ بمياه المطر. أشهر الرسومات والصور التي وجدت على سفوحه هي تلك التي وجدها أحمد بيه حسنين في كركور الطلح ونشرها ووصفها في كتابه الواحة المفقودة، ثم ما وجده الأمير كمال الدين في كركور إبراهيم وكركور حامد. وتظهر في هذه النقوش صور رجال ونساء وزرافات ونعامات وبقر وحشية وخيول ومواش وضأن متوحش وكلاب أو فعالب وفرس نهر ووحيد القرن وسرطان ثم القسي والرماح والتروس.

2- المجموعة الثانية وتمثل الحيوانات البرية التي لا تحتاج إلا إلى قدر محدود من الرطوبة والحشائش كالبقر والزراف والنعام.

3- المجموعة الثالثة وتمثل رجالاً يركبون عربات تجرها الخيول أو يركبون الخيول نفسها.

4- المجموعة الرابعة وتمثل رعاة الجمال.

وواضح من التقسيم السابق أن المجموعة الأولى فقط ترجع لعصر ما قبل التاريخ بينما ترجع المجموعات الثلاث الباقية للعصر التاريخي؛ فالحصان لم يُعرف إلا في أيام الجرامنتيين أي في القرن الثامن أو السابع قبل الميلاد بينما لم يُعرف الجمل إلا حوالي تاريخ الميلاد في الساحل وحوالي القرن الميلادي الرابع في الداخل. والجدير بالملاحظة أن التقسيم السابق للرسومات والنقوش يتفق مع تقسيم علماء الجيولوجيا والمناخ للفترات المناخية التي مرت بها الصحراء الكبرى – ومنها الصحراء الليبية – وهي:

1- الفترة الأولى المطرة من 20000 إلى 12000 ق.م. وتصادف الزمن الجليدي الثالث في أوروبا.

2- الفترة الثانية وهي فترة الجفاف الأولى من 12000 إلى 5500 ق.م. وكانت الظروف المناخية بالصحراء خلالها تشبه ظروفها الحالية.

3- الفترة الثالثة وهي الفترة المطرة الثانية من 5500 إلى 2500 ق.م. وتصادف الزمن الجليدي الرابع والأخير في أوروبا.

4- الفترة الرابعة وهي فترة الجفاف الثانية التي بدأت حوالي 2500 ق.م. ولا تزال مستمرة حتى الآن.

ومن الواضح أن الرسوم والصور والنقوش في عصر ما قبل التاريخ ترجع إلى الفترة المناخية الثالثة التي أُطلق عليها اسم عصر الصيادين وتظهر فيها الحيوانات المفترسة كالأسود والتماسيح وغير المفترسة كفرس النهر والخرتيت كما يظهر فيها الصيادون في جماعات منظمة يعملون على صيد الحيوانات بالشباك أو بالأسلحة البسيطة كالهروات التي كانوا يثبتون في

أطرافهـا أحياناً رؤوس حراب حجرية. وهم يرتـدون ملابس من جلود الحيوانات تغطـي عوراتهم كما يظهرون في رسـومات أخرى وهم يلبسـون أقنعة من رؤوس حيوانات الصيد كالغزلان والحمير الوحشية والخرتيت والذئاب والفهود لأغـراض التمويه علـى الحيوانـات وتسـهيل اصطيادها. وأوضـح مثال عل رسـومات هذا العصر هو ما وجد في أودية متخنـدوش الواقعة خلف مرزق. وقـد زار الدكتور محمد سـليمان أيوب[9]، مراقب آثـار المحافظات الجنوبية، هذا الموقع ودرس ما فيه من رسوم فوصفها بأنها «نتاج قوم على درجة عالية من المعرفة والذوق الفني» وبأنها مثلت الحيوانات المرسـومة «بواقعية منقطعة النظير».

والمجموعـة الثانية من الرسـوم تمثل صيادي الزراف والنعـام، ورعاة البقر، وهـي تمثل المراحل الأولى من الفترة المناخية الرابعة التي بدأت حوالي 2500 ق. م. ولا تزال مسـتمرة حتى الآن. وتجب الإشـارة هنا إلى أن الجفاف الذي حل بأجواء هـذه المنطقة من الأرض فحولها في النهايـة إلى الصحراء القاحلة التـي نعرفها الآن لم يحـدث فجأة وإنما بدأ حوالي 2500 ق. م. واسـتمر في التصاعد حتى بلغ ذروته حوالي سنة 1000 ق. م. وبين هذين التاريخين كانت هنالك أمطار موسمية تتساقط في هذه المنطقة وتكفي للإبقاء على حياة الحيوانات التي وردت رسوماتها في المجموعة الثانية. وتتميز هذه الفترة بتقدم فن الرسم الصخري وباسـتخدام الألوان (قبيل نهاية هذه الفترة) لتوضيح الأشـكال المنقوشـة. ومن أحسـن الأمثلة على رسـومات هذه الفترة تلك التـي وجدت على جـدران حقاف جبال الأتاكوس؛ وأبرزهـا لوحة تمثل رقصات حفلات المطر تظهر فيها الراقصات متهدلات الشـعور وهن يؤدين رقصاتهن الإيقاعيـة. وقد عرفت هذه الفترة بعصر الرعاة نسـبة للرعاة طوال القامة الذين نزلوا فزان في هذا الزمن والذين استخدموا الألوان الطبيعية في رسم أبقارهم كما أنهم رسموا أنفسهم باللون الأحمر.

والمجموعة الثالثة التي رسم فيها الرجال بأشكال هندسية وهم يركبون

9- أيـوب، محمد سـليمان، مختصر تاريخ فـزان منذ أقدم العصور حتـى 1811 م، المطبعة الليبية، طرابلس الغرب، ص40.

العربـات أو يمتطـون الخيل تمّ التأكـد مؤخراً أنها من عمـل الجرامنتيين الذين استقروا في فزان حوالي القرن الثامن قبل الميلاد – ورسوم الفنانين الجرامنتيين الأول تظهـر بدائية سـاذجة إذا ما قورنت برسـوم عصر الرعـاة فقد اختفت الرشـاقة التي كانت تتميز بها رسـوم الأشـخاص وأصبح فنانو الجرامنتيين الأول يرسـمون الأشـخاص على شـكل خطوط متقاطعـة أو نقط ورؤوس أسـهم. ولكنهم لم يلبثوا أن تعلموا فن الرسـم الصخري وأجادوا فيه كما يظهر في رسـوم جبل زنككرا (جبل العسـل) التي تمثل عصر نهضة الفن الجرامنتي ويقول فرانكوا سـاتن (Franco Sattin) في مقال له عن نقوش زنككرا[10]: «يزدان الجانب الشـمالي لهضبـة زنككرا بنقوش حيوانية وأخرى آدمية ترتقي إلى الدور الأخير من حقبة الرعاة وتدجين المواشـي والخيول. كما يظهـر ضمن مجموعة النقوش نحت سـطحي يمثل رأس إنسـان من جنس البحر الأبيض المتوسـط (ويحتمل أنه جرامنتي)». وقد لاحظ صاحب المقال نقشـاً بشـكل أربع نعامات صغيـرة بالإضافة إلى نقوش علـى حدة تظهر فيها محاكاة الطبيعة بطريقة سـليمة. ولاحظ كذلك نقوشـاً أخرى شبه تخطيطية كما لاحظ تخاطيط مع أشكال آدمية وفارس وأشكال حيوانية.

حوافز المخلفات الفنية ودلالتها

قبل الاسترسـال في الحديث عـن دلالة هذه المخلفـات الفنية من الصور والرسـوم والنقوش الصخرية لابد لنا من التسـاؤل عـن الدوافع التي حفزت أبنـاء الصحراء القدامى للقيام بعمل تلـك النقوش. وهنا يجب أن نقرر منذ البداية أن الاجابة عاى هذا التسـاؤل لا تعدو نطاق التخمين والاسـتنتاج. إن بعض المؤرخين يذهبون إلى أن الدوافع التي حركت فناني ما قبل التاريخ ومن بعدهـم قـد تكون دوافع سـحرية أو دينية، أو إنهم ربما كانـوا يقومون بتلك الأعمـال من بـاب الفن للفن أو من باب التلذذ والتسـلية[11]، بينما ذهب فريق

10- انظـر: ليبيا القديمة، نشـرة حوليـة تصدرها الإدارة العامة للآثـار والمتاحف والمحفوظات التاريخية بليبيا، وزارة التربية والتعليم، المجلد الثاني، 19965، ص 22.

11- لوت، هنري، لوحات تسـيلي، قصة لوحات كهوف الصحراء الكبرى قبل التاريخ، مكتبة الفرجاني، طرابلس، ليبيا الطبعة الأولى، بيروت، نوار (مايو) 1967، ص 59 – 61.

ثانٍ إلى أنهم كانوا يخلدون أعمال مشاهير صيادي العصر ويتلقون منهم مكافآت على شكل قطع إضافية من اللحم. ومن الطبيعي أن ما يرسمه الإنسان العادي من أشكال يأتي مرتبطاً بتجاربه ومعرفته وبالأشياء المهمة في حياته؛ ولا شك أن الحيوانات كانت من أهم الأشياء في حياة إنسان الصحراء الليبية القديم.

أما دلالة تلك الصور والرسوم والنقوش الصخرية وما يمكن أن يستخلص منها من نتائج فيمكن إجمالها فيما يلي:

1- إن الصحراء الليبية كانت في الفترة الممطرة الثانية (5500 – 2500 ق. م.). وهي الفترة التي يعتقد المختصون أنها زمن هذه المخلفات الفنية، غنية بالمياه والغابات والأشجار[12] والنباتات بمعنى أنها كانت امتداداً شمالياً للغابات الاستوائية في إفريقيا الوسطى الحالية، وكانت بالتالي آهلة بالعرق الأسود الذي دفعه الرجل الأبيض فيما بعد إلى وسط القارة الإفريقية. والمؤرخون لا يعرفون من أين جاء الرجل الأبيض إلى الشمال الإفريقي وإن كان بعضهم يقولون إنه جاء « من وراء البحر» أي من أوروبا.

2- إن الرسوم الصخرية في كهوف الصحراء تبدأ بالصور المرسومة على جدران الكهوف وبنصب بسيطة من الحجارة تتحدث عن الموت والحياة في الصحراء في فجر التاريخ، ومن هنا فهي ذات دلالة دينية[13].

3- إن المستوى الفني المتقدم الذي يتجلى في هذه الرسومات والصور والمنقوشات الصخرية المرسومة أو المحفورة على وجوه الصخور الملساء في كهوف الصحراء في عصور ما قبل التاريخ تدل بتناسقها وقوة تعبيرها عن الحركة على ما أحرزه إنسان الصحراء من تقدم حضاري في عصر الصيادين كان الأساس الذي ازدهر عليه فن الرسم الصخري الملون بالألوان الطبيعية

12- يقول هنري لوت في الحديث عن جذوع أشجار التارو (فصيلة قريبة من شجر السرو) القديمة في تسيلي: «وقد أحطيت تلك الجذوع القديمة بعناية خاصة أثناء الحملة، لأنها هي بدورها قد سبقت التاريخ وظلت شواهد على الظروف الرطبة التي كانت موجودة في الماضي. وتدل الإحصائيات على أنه ليست هناك إلا حوالي مائة من هذه الجذوع رغم أنها كانت في زمن مضى شيئا مألوفاً أرض تسيلي» لوحات تسيلي ص 48.

13- المرجع السابق ص 77 – 85، 117 – 124، 196 – 209.

في فجر التاريخ منذ حوالي 2500 سنة ق. م.

4- إن وجود هذه الرسوم والصور في معظم أنحاء الصحراء الكبرى يدل على أنها كانت تعج بالسكان وبالحيوانات التي ملأوا جوانب الصحراء برسومها.

5- إن العدد الكبير من اللوحات المستنسخة من كهوف هضبة تسيلي يجعل المرء يتصور الصحراء الكبرى وكأنها متحف فني كبير لعصور ما قبل التاريخ والمراحل الأولى من العصر التاريخي. ويتجلى في هذه اللوحات أسلوبان بارزان أحدهما رمزي قديم يبدو أنه من ابتداع فنانين زنوج، وهو أسلوب الرسومات التي ترجع إلى ما قبل التاريخ، والآخر أحدث من الأول وهو صريح في محاكاة الطبيعة ويرجع إلى العصر التاريخي ويظهر فيه تأثير وادي النيل بشكل وضوح، وربما ظهر فيه كذلك شيء من تأثير الفن الإيجي مما قد يعني قدوم عناصر مصرية أو إيجية إلى المنطقة أو عودة بعض أبناء المنطقة ممن ساقهم التجول أو الأسر أو الاسترقاق إلى مصر أو إلى غيرها فجلبوا معهم ما تأثروا به هم أنفسهم.

6- إن الفن الذي يتجلى في لوحات تسيلي وغيرها من النقوش الصخرية الكثيرة يساعد على تتبع الحياة الحيوانية في الصحراء الإفريقية الكبرى وبالتالي على تتبع التقلبات المناخية الكبرى التي نتج عنها ذلك الإمحال التدريجي فحول المنطقة في النهاية إلى صحراء.

7- إن التقسيم المذكور سابقاً بالنسبة للرسوم وللعصور الجيولوجية والمناخية التي مرت على الصحراء الكبرى يعطينا المزيد من المعلومات عن أنماط الحضارات التي تتابعت على الصحراء: حضارات صيادين مسلحين بالهراوات والبومراغ (Boomerang) أو المقذوفات الراجعة وحضارات رعاة ورماة نبال، وحضارات محاربين مسلحين بالجريد جاءوا بالحصان الأليف والعربات الحربية ذات العجلتين التي تجرها الخيل إلى ليبيا.

8- تشير الصور والرسوم إلى أن حيوانات المنطقة لم تتغير خلال زمن طويل فهي مرسومة بأقدم الأساليب الفنية، ولا يبدو عليها أي تبدل

ملحوظ حتى حوالي منتصف الألف الثالث قبل الميلاد عندما تختفي صور الحيوانات الضخمة كأفراس النهر والفيل والكركدن بينما تستمر النعامة والزرافة في الظهور في الرسوم.

دلالة المخلفات الآثرية

يميز علماء التاريخ القديم في دراسته بين عصرين: عصر ما قبل التاريخ والعصر التاريخي. ويقصدون بالأول تاريخ الإنسان من أقدم أيامه حتى حوالي سنة 3000 ق. م. عندما اخترعت الكتابة. كما يقصدون بالآخر تاريخ الإنسان منذ سنة 3000 ق. م. فما بعدها. وعلى هذا الأساس فإن التاريخ يعتمد كلية على الأركيولوجيا (Archaeology) في دراسة عصر ما قبل التاريخ بينما هو يعتمد عليها أقل من اعتماده على الوثائق المكتوبة في دراسة العصر التاريخي.

العصر الحجري القديم (Paleolithic Age):

تتناول أركيولوجية العصر الحجري القديم تطور الحضارة البشرية في الحقبة التي بدأت بظهور الإنسان كثديي يستعمل الأدوات الحجرية وانتهت مع بدء العصر الجيولوجي الحديث قبل حوالي عشرة آلاف سنة. ومعنى هذا أننا نبدأ في مرحلة مبكرة من عصر البليستوسين أو العصر الجليدي الذي بدأ قبل مليون سنة وانتهى قبل حوالي عشرة آلاف سنة. وقد ظهرت في بداية هذا العصر مخلوقات شبيهة بالإنسان الأول وراحت تتطور ببطء شديد منشئة خلال تطورها حضارة إنسان العصر الحجري القديم الأدنى ثم حضارة إنسان العصر الحجري القديم الأوسط فحضارة العصر الحجري القديم الأعلى. وكان الإنسان في العصر الحجري القديم الأدنى والقديم الأوسط يعيش على جمع المواد الغذائية واقتناص الحيوانات والطيور وصيد الأسماك وجمع الفواكه والحبوب البرية. وتجدر الإشارة هنا إلى أن هذوه الحضارة البشرية البسيطة نشأت وتطورت خلال عصر البليستوسين الذي تميز بأحداث مناخية كبرى من مثل تعرض الأقاليم الشمالية من الكرة الأرضية أربع مرات متفاوتة لزحف الجليد ومن مثل تكون أودية الأنهار والتغيرات الأساسية التي

طرأت على نباتات الأرض وحيواناتها.

وليست لدينا معلومات كافية عن العصر الحجري القديم وإنما نعتمد فيما نعرفه عنه على ما تخلف من آثار الإنسان المادية التي صمدت لعوامل الزمن. وحتى تلك المخلفات تكاد تنحصر في الأدوات الحجرية أو تلك المصنوعة من العظام والقرون. بالإضافة إلى بقايا الحيوانات التي كان أسلافنا يصطادونها.

ونستطيع أن نقول بشكل عام إن الأدوات التي استعملها الإنسان في هذا العصر تدل على تطور تدريجي. إذ إنه بدأ يستعمل أداة واحدة لكل أغراضه. ثم توصل لصنع مجموعة أدوات محسنة يستعمل كل واحدة منها لأداء وظيفة معينة. ونستطيع أن نقول في هذا الصدد إن إنسان العصر الحجري مضى في تقدمه وتطوره من البسيط إلى المعقد ومن مراحل عدم التخصص إلى مراحل تتميز بدرجة عالية نسبياً من التخصص على نحو ما حدث لإنسان العصر التاريخي.

وعلى ضوء المعلومات القليلة المتوافرة لدينا عن العصر الحجري القديم نستطيع أن نقول إن صناعة الأدوات الحجرية مرت بأربع مراحل:

1- مرحلة الأدوات المصنوعة من رضف الأودية.

2- مرحلة الفأس اليدوية والأدوات ذات الحدين.

3- مرحلة الأدوات الرقيقة المصنوعة من شظايا الظران أو الصوان (Flakes).

4- مرحلة الأدوات الحجرية المصنوعة على شكل نصال.

وهذا التقسيم لا يعني أن كل مرحلة من هذه المراحل سادت فترة زمنية معينة قضت فيها على المرحلة السابقة لها نهائياً. بل الواقع أن أدوات المرحلة الواحدة كانت تبقى مستعملة إلى جانب أدوات المرحلة التالية ما دام هنالك ما يدعو لاستعمالها. لكن الاتجاه العام هو في السير من البسيط إلى المعقد كالبدء مثلاً بالأدوات المصنوعة من رضف الأودية بتحديد أحد

الجانبين لاستخدامه في القطع أو البشر. ثم الترقي إلى صنع الأدوات ذات الحدين وهكذا. وقد اهتدى الإنسان إلى طرق مختلفة لصناعة أدواته الحجرية خلال العصر الحجري القديم الأدنى الذي شغل ثلاثة أرباع عصر البليستوسين فصار مثلاً يعد نواة من الصوان ثم يطرق عليها بنحو معين بكتلة أخرى فيشق منها الشظايا التي كان يشحذها أو يسننها على الشكل المطلوب. وبالإضافة إلى هذا التطور فإن أهم اكتشاف اهتدى إليه الإنسان في هذا العصر هو معرفة استعمال النار وإشعالها أو إخمادها.

العصر الحجري القديم الأوسط (180000 – 80000 ق. م.)

في هذا العصر طور الإنسان الأساليب الصناعية القديمة وارتقى بها إلى درجة الإتقان فصارت الأدوات المصنوعة من الشظايا تنتج بكثرة ويخصص كل منها لأداء وظيفة أو وظائف معينة. كما ظهرت لأول مرة صناعة عظام بدائية. وسكن الإنسان في هذا العصر الكهوف ودفن موتاه عن قصد لأول مرة في تاريخه. وقد وجدت آثار إنسان هذا العصر في أوروبا وغربي آسيا والهند وإفريقيا مما يشير إلى أن الأفكار والمفاهيم الجديدة التي كانت تكتشف في منطقة ما كانت تنتقل بسرعة معقولة إلى المناطق الأخرى من هذا العالم. وكانت كثافة السكان في هذه الفترة قليلة كما إنهم كانوا يعيشون على شكل جماعات صغيرة متفرقة.

العصر الحجري القديم الأعلى (80000 – 10000 ق. م.)

هذا العصر الذي تعادل مدته حوالي عشر مدة العصر الحجري القديم هو القسم الثالث والأخير من الأقسام الرئيسية للعصر الحجري القديم وهو الفترة التي حقق الإنسان خلالها أعظم تقدم حضاري له؛ إذ إنه استغنى عن الأدوات الشظايا وعن الفؤوس اليدوية واستعمل بدلاً منها الأدوات النصال. وفي هذا العصر ظهرت أيضاً اختراعات أساسية عديدة من أمثال الخيط والإبرة وملابس الجلد والأدوات الحجرية والعظمية ذات المقابض. والرماح الخاصة بصيد الحيتان. وقاذفة الحراب. وأدوات خاصة بصيد الأسماك. ومن ناحية أخرى شاع استعمال العاج والعظام والقرون إلى جانب الصوان على

نطاق أوسع كثيراً مما كان عليه الحال قبل ذلك. وتجدر الإشارة هنا إلى أمر هام هو أن الأسس الفنية الأولى للرسم والنحت والنقش والطلاء إنما وضعت في هذا العصر. ثم ظهر الرقص وظهرت الموسيقى وصار الإنسان يستعمل الأقنعة ويقيم الحفلات كما إن المجتمع الإنساني صار ينظم على أسس أكثر تعقيداً من ذي قبل.

وفي هذا العصر اختفت الأنواع البدائية من البشر وحل محلها الإنسان العصري العاقل (Homo Sapiens) الذي يشبه إنسان العصر الحاضر.

وفي أوروبا الغربية تدل مخلفات إنسان هذا العصر وأدواته على أنه أقام مراحل متتابعة من الحضارة أعطى العلماء كل مرحلة منها اسماً مميزاً لها فسموا الأولى (hatelperronian) والثانية (Aurignacian) والثالثة (Gravettian) والرابعة (Solutrean) والخامسة (Magdalenian). وميزوا كل مرحلة من هذه المراحل بمجموعة من أنواع الأدوات التي استعملها الإنسان خلالها.

وقد حدث تطور مشابه للتطور الأوروبي الغربي في أوروبا الوسطى والشرقية وفي بلدان حوض البحر الأبيض المتوسط بما في ذلك الشرق الأدنى. وكذلك في سيبيريا الوسطى. أما في الهند وفي شرق آسيا وشرق وجنوب إفريقيا فقد استمرت الأساليب الصناعية التقليدية القديمة التي كانت تعتمد على إنتاج الأدوات الحجرية من نواة معدة لذلك الغرض. وعلى إنتاج الأدوات الشظايا. وفي الواقع فإنه لا يبدو أن التقنية الجديدة المتقدمة قد انتقلت إلى هذه المناطق إلا بعد انتهاء العصر الحجري القديم بزمن.

العصر الحجري المتوسط (Mesolithic) (10000 – 7500 ق. م.):

بدأ هذا العصر قبل حوالي عشرة آلاف سنة واستمر في أوروبا وحوض البحر الأبيض المتوسط حوالي 2500 سنة ممتداً إلى ما بعد مرحلة الزحف الجليدي. وفيه استمر الإنسان يتبع طرق جمع الفواكه وما إليها كما كانت الحال في العصر الحجري القديم. أمّا ففي بعض البلدان الأخرى من مثل جنوب إفريقيا وأُستراليا وطسمانيا فقد استمرت طريقة الحياة التي كانت سائدة

في هذا العصر حتى العصر التاريخي. أما في أوروبا وشمال إفريقيا والشرق الأدنى فإن الأركيولوجيين يعرفون هذا العصر بأنه فترة واضحة تقع بين العصر الحجري القديم من ناحية والعصر الحجري الحديث من ناحية أخرى. ولكن حضارات هذا العصر المتوسط لا يجوز اعتبارها على أي حال حلقة تطور تربط بين هذين العصرين بل يجب اعتبارها تطويراً وتعديلاً تدريجياً لاقتصاد الصيد القديم حتى يتناسب والأحوال البيئية الناشئة عن تدافع الأقاليم ذات السلاسل الجبلة المرتفعة. وبالتدريج تغلغلت مؤثرات حضارية جديدة في غرب أوروبا من بلدان جنوب البحر الأبيض المتوسط حيث كانت جماعات حديثة من الصيادين قد أقامت سلسلة من الحضارات المرتبطة ترابطاً وثيقاً والتي تميزت أدواتها الرئيسية بأنها كانت عبارة عن قطع صوانية صغيرة ذات أشكال هندسية عرفت ميكروليث (Microliths) – وقد عرفت هذه الحضارات في الشمال الإفريقي باسم حضارة قفصة (Capsian) وحضارة وهران (Oranian). نسبة لوهران في الجزائر. ويدل تعدد الحضارات التي نشأت هنا وهناك في أوروبا وشمال إفريقيا وفي الشرق الأدنى خلال هذا العصر على تزايد سرعة النمو والتطور مما يجعل السجل الأركيولوجي من هذا الحد فصاعداً أكثر تعقداً وتشابكاً[14].

العصر الحجري الحديث (Neolithic) (7500 – 3000 ق. م.):

لقد أتم الإنسان في العصر الحجري المتوسط بناء اقتصاد قائم كلية على جميع المواد الغذائية (جمع الفواكه والحبوب واقتناص الحيوانات والطيور وصيد الأسماك). وحدث بعد هذه الحقبة وخلال العصر الحجري الحديث تطور أدى بالإنسان إلى تغيير طريقة حياته تغيراً كلياً ذلك أنه أصبح مزارعاً يعتمد في اقتصاده على إنتاج المواد الغذائية بدلاً من جمعها. وصار يصنع الأوعية الفخارية ويربي الماشية والحيوانات التي استأنسها في هذا العصر كما إنه حسن أدواته الحجرية إلى درجة الإتقان.

ولعل الفخاريات هي أكثر مخلفات إنسان هذا العصر فائدة لنا في

14- The Encyclopedia Americana, International Edition (Vol. I – Africa, Vol. II – Archacology), American Corporation, New York, 1966.

التعرف على تاريخه. ذلك أن قطع الفخار لا تندثر كلية كما إنه يمكن التعرف عليها دون صعوبة. وتأتي العظام بعد الفخاريات في الأهمية فنحن نعرف مما اكتشف منها. بالرغم من صعوبة التمييز بين عظام الحيوانات الأليفة وغير الأليفة. أنه استأنس البقر والنعاج والماعز والخيل والكلاب. ونستدل على اكتشافه للزراعة بالحبوب المتحجرة والمتفحمة وبأحجار الطواحين والأدوات الحجرية الزراعية. وتدل المخلفات الآركيولوجية على أن المزارعين ومربي الماشية بدأوا بعد وقت غير طويل يبنون قبور موتاهم من الطين والحجارة. ويحصنون قراهم. ثم بدأوا يشيدون المعابد.

عصر المعادن:

صهر الإنسان النحاس في الشرق الأدنى في وقت لا يتأخر عن سنة 3000 ق. م. كما أنه صهر الذهب والفضة وربما الرصاص أيضاً في الأناضول بعد ذلك التاريخ. ولكن النحاس بقي المعدن الوحيد المستخدم في التكنولوجيا القديمة إلى ما بعد سنة 2000 ق. م. ولما كان اختراع الكتابة يعتبر بداية للعصر التاريخي سنة 3000 ق. م. فإن معظم عصر النحاس في الشرق الأدنى يقع في العصر التاريخي. وكانت الكتابة قد ظهرت في بابل ومصر حوالي سنة 3000 ق. م. ثم انتشرت خلال الألف التالي في جميع أرجاء الشرق الأدنى وفي كريت. ولا يزال العديد من الآركيولوجيين يقسمون العصر التاريخي إلى:

1- عصر البرونز من 3000 ق. م. إلى 1400 ق. م.

2- عصر الحديد من حوالي 1400 ق. م. إلى مطلع تاريخ الميلاد.

ويؤخذ على هذه التسمية أنها بالنسبة للبرونز تتضمن استعماله قبل ظهوره إذ إن البرونز الحقيقي (نحاس ممزوج بـ 10 % من التنك) لم يستعمل قبل سنة 1800 ق. م. وإن كانت محاولات تقوية النحاس وإكسابه صلابة بمزجه بالتنك قد تقدمت على هذا التاريخ. وبنفس الطريقة فإن الحديد الذي صهر في آسيا الصغرى حوالي سنة 1500 ق. م. أنما انتشر ببطء. إلى بقية الشرق الأدنى ولم يشع استعماله في مصر إلا في العصرين البطلمي

والروماني. وعصر المعادن في ليبيا يخص العصر التاريخي ولذلك سنؤجل الحديث عنه إلى موضع آخر من هذا الكتاب.

في إفريقيا وليبيا:

تميز العصر الحجري القديم في إفريقيا بمجموعات متنوعة من الأدوات الحجرية بعضها يمثل التطور المحلي والبعض الآخر يشبه إلى حد كبير أمثاله في أوروبا. ولقد بدأ هذا العصر في إفريقيا في وقت ماكر من عصر البليستوسين واستمر في بعض مناطقها إلى وقت حديث. أما عصر المعادن فقد بدأ في مناطق حوض البحر الأبيض المتوسط خلال الألف الثاني قبل الميلاد ولكنه بقي في إفريقيا مقصوراً على المناطق الواقعة شمال الصحراء الكبرى ولم يتجاوزها إلى الجنوب إلا في مطلع سني الميلاد. وقد ظل رجال الغابات في جنوب غربي إفريقيا يستعملون الأدوات الحجرية حتى قبل مائتي سنة فقط. وفي الشمال الإفريقي أو المناطق الإفريقية الواقعة شمالي الصحراء الكبرى سارت حضارة عصر ما قبل التاريخ على النمط الذي سارت عليه في أوروبا فما لبثت الفأس الحجرية اليدوية أن استبدلت بنصال وأدوات بشر مصنوعة من شظايا الصوان ثم تطورت تلك النصال والأدوات إلى أدوات ذات حدين وبشارات تصنع من نواة صوانية معدة خصيصاً لهذا الغرض. ثم أضيفت إلى كل ذلك أدوات ذات مقابض عثر على بعض منها في برقة وقدر العلماء أنها ترجع إلى حوالي سنة 34000 ق. م. وهي دون شك من صنع الإنسان العاقل الذي كان لا يزال يحتفظ بصفات تدل على أنه انحدر من الجنس البشري الإفريقي الذي كان يعيش في المنطقة منذ منتصف عصر البليستوسين.

وحوالي سنة 30000 ق. م. أو سنة 28000 ق. م. قامت على ساحل برقة حضارة مغايرة لما سبقها وتميزت باستعمال النصال الصوانية الطويلة. وكان صناع النصال من نوع الإنسان العاقل وربما قدموا إلى المنطقة من جنوب غرب آسيا. وقد كانوا صيادين يعيشون على الكبش البربري والغزال وحمار الوحش وبقر الوحش مكيفين أنفسهم وحضارتهم الآسيوية لتتلاءم

مع البيئة الجديدة. وقد استمرت حضارتهم هذه حوالي اثنين وعشرين ألف سنة.

ولما كان العصر الحجري الحديث قد بدأ في الفيوم وفي وادي النيل في الألف الخامس قبل الميلاد فإن من المعتقد أن حضارة هذا العصر أخذت تمتد غرباً إلى برقة والشمال الإفريقي ثم جنوباً إلى غرب إفريقيا بعد حلول الجفاف الذي أدى إلى تكون الصحراء الكبرى سنة 2500 ق. م.

ولقد مرت ليبيا القديمة بالمراحل المختلفة لعصر ما قبل التاريخ وأقام الإنسان الليبي القديم الحضارات الحجرية متأثراً قليلاً أو كثيراً بحضارات جيرانه في الشرق والغرب.

وكما قلنا عن الصحراء الليبية إنها متحف فني كبير لعصور ما قبل التاريخ. نستطيع أن نقول عن ليبيا بحدودها الحالية إنها متحف آثار كبير لم تكتشف منه حتى الآن إلا زوايا قليلة. ولم يفتح من مغالق كنوزه الحضارية سوى النزر اليسير. إن دراسة أحوال ليبيا في عصر ما قبل التاريخ لا تزال موضوعاً بكراً بالنسبة لعلماء التاريخ وعلماء الأركيولوجيا على حد سواء؛ فقد ثبت أن قسطاً كبيراً من الآثار التي تم اكتشافها حتى الآن من مثل آثار مدينة جرما وقصر مارا وشرابا ولوروكو والحاسيا وزويلة. وما وجد فيها وحولها من قبور وأضرحة وقلاع منتشرة في وادي الآجال بفزان تعود جميعها إلى العصر التاريخي وإلى أيام الجرامنتيين على وجه التحديد (حوالي القرن الثامن قبل الميلاد) رغم ما وقع فيه بعض الكتاب من التباس فنسبوا الكثير منها إلى عصر ما قبل التاريخ كما فعل جيمس ويللارد[15].

العصر الحجري القديم الأدنى:

لعل أفضل ما نشر عن عصر ما قبل التاريخ في ليبيا حتى الآن هو كتاب: Prehistory and Pleistocene Geology in Cyrenaica, Libya لمؤلفيه (C.B.M. McBurney و R. W. Hey). فقد أظهر المؤلفان أن

15- ويللارد. جيمس. الصحراء الكبرى. مكتبة الفرجاني. طرابلس. ليبيا. الطبعة الأولى بيروت. نوار (مايو) 1967. ص 35.

ما تم كشفه من مخلفات آركيولوجية يثبت أن ليبيا مرت بجميع مراحل عصر ما قبل التاريخ. ففي شمال منطقة طرابلس بشكل عام وفي موقع بئر دوفان[16] بشكل خاص اكتشفت مخلفات من صناعة الفؤوس الحجرية اليدوية تدل على أن تلك الصناعة سادت خلال فترة ممطرة تتفق مع فترة انتشار هذا النوع من الصناعة في الصحراء الغربية وفي واحة الخارجة. واكتشف في توكرة ومواقع متفرقة من برقة في المدة الأخيرة مخلفات تدل على قيام حضارة العصر الحجري القديم الأدنى في ليبيا.

العصر الحجري القديم الأوسط:

أما حضارة العصر الحجري القديم الأوسط فقد أقيم الدليل على وجودها في ليبيا بملاحظة صناعات مختلفة هي:

1- صناعة الشظايا والأدوات الشظايا المحسنة وقد وجدت مخلفات لها في ثلاثة مواقع مختلفة في برقة.

2- صناعة أخرى قام بها الإنسان النياندرتال (Neanderthal) وهي تناظر الصناعة التي كانت قائمة في فلسطين في هذا العصر وتتشابه أدواتها مع الأدوات التي وجدت في جبل الكامل بحيفا في فلسطين. وفي الوقت ذاته فإن هذه الصناعة تعاصر بداية الزحف الجليدي الأخير في جنوب إيطاليا.

3- محاجر صنع الأدوات المحسنة قليلاً وهي تعاصر شبيهاتها من عهد الزحف الثاني للعصر الجليدي الأخير في جنوب إيطاليا.

والدليل الناصع الآخر هو اكتشاف موقع الحاج كريِّم[17] حيث وجدت أدوات حجرية لها ما يماثلها في فلسطين وأوروبا. وتدل عظام الحيوانات التي وجدت ضمن مخلفات هذا الموقع على أن الجماعة التي كانت تعيش فيه كانت

16- قرب أحد مصبات رافد من روافد وادي مردم الذي هو رافد لوادي سوفجين وعلى بعد مائة كيلومتر من الشاطئ.

17- على الضفة الشرقية لوادي جحام قبل التقائه بوادي درنة وتحت ضريح المرابط سيدي الحاج كريم الذي سميت المنطقة باسمه وعلى بعد ستة كيلومترات ونصف الكيلومتر من الشاطئ.

تقتني تلك الحيوانات لأكل لحومها. وأهم هذه الحيوانات هب البقر والغزلان وحمر الوحش والسلاحف البرية والكباشُ البربرية.

وقد وجدت أدوات حجرية تشبه أدوات موقع الحاج كريم في وادي الناقة وعين مارا ومواقع أخرى غربي درنة وفي رأس عامر على ساحل برقة وفي وادي مردوم ووادي غان وسفوح جبل نفوسة بمنطقة طرابلس.

العصر الحجري القديم الأعلى:

وبالنسبة لحضارة العصر الحجري القديم الأعلى جاء اكتشاف حقفة الضباع في وادي الكوف إثباتاً قاطعاً لقيام هذه الحضارة في ليبيا. وتتماثل المخلفات التي وجدت في هذا الكهف مع ما وجد من مخلفات هذا العصر في فلسطين وسوريا من ناحية ومع ما وجد من مخلفات حضارة قفصة في تونس من الناحية الأخرى. وقد دل التحليل الكربوني على أن مخلفات هذا الكهف ترجع إلى حوالي سنة 14000 ق. م.

وهنالك كهف آخر هام هو كهف حقفة الطيرة (كهف الطيور) الذي اكتشفه سنة 1937 م. الآركيولوجي الإيطالي السنيور بتروكي (Signor C.T. Petrocchi). وتكمن أهمية هذا الكهف في أن محتوياته من الأدوات الحجرية والعظام وغيرها من المخلفات وجدت على ما تركت عليه دون أن تمتد إليها يد العبث. وفي أنه يحتوي أدوات يرجع بعضها إلى العصر الحجري القديم الأوسط بينما يرجع البعض الآخر إلى العصر الحجري القديم الأعلى[18].

ومن مخلفات هذا العصر ما وجد في موقع «هوا الفتايح» بالقرب من أبولونيا (= سوسة). وقد دل التحليل الكربوني لمخلفاته على أنها تعاصر مخلفات حقفة الضباع وحقفة الطيرة.

العصر الحجري المتوسط:

أما العصر الحجري المتوسط فإن ما اكتشف من أدواته في ليبيا قليل ولا

18- حقفة الطيرة كهف من الحجر الكلسي الذي تكون خلال عصر الميوسين وهو يقع في الطرف الشرقي من سهل برقة الساحلي وعلى بعد عشرة كيلومترات إلى الداخل من بنغازي وهو يفتح إلى الجنوب الغربي.

يكفي لإعطاء صورة عن الحضارة الليبية القديمة في هذا العصر. وبالرغم من ذلك فإن الإنسان الليبي القديم الذي مر بمراحل العصر الحجري القديم كلها لابد وأن يكون تابع تطوره فمر بهذا العصر. ولقد اكتشف حول خليج سرت أدوات تعود إلى قبيل العصر الحجري الحديث كما اكتشفت أدوات حجرية في وادي غان وعلى بعد خمسة عشر كيلومتراً إلى الجنوب من غريان ترجع إلى قبيل بدء العصر الحجري الحديث. وعلى الضفة الأخرى لهذا الوادي ومقابل الموقع المذكور اكتشفت أدوات حجرية تدل أيضاً على أن صناعها إنما عاشوا عشيةالانتقال إلى العصر الحجري الحديث. بالإضافة لذلك فقد اكتشفت أمثلة لصناعات هذا العصر في مواقع أُخرى متفرقة في ليبيا من الجبل الغربي حتى الجبل الأخضر.

العصر الحجري الحديث:

إن المكتشفات الآركيولوجية في واحة سيوة وفي شمالي منطقة طرابلس وفي برقة مضافة إلى أحدث ما تم التوصل إليه في مصر والمغرب تشير كلها إلى أن ليبيا كانت خلال هذا العصر تنقسم إلى منطقتين حضاريتين تتميز الواحدة منهما عن الأخرى: المنطقة الغربية وتشمل كل الأرض الليبية الواقعة إلى الغرب من خليج سرت. والمنطقة الشرقية وتشمل كل الأرض الليبية الواقعة إلى الشرق من ذلك الخليج[19]. وقد كان يغلب على المنطقة الغربية الطابع الإفريقي كما إنها كانت ترتبط ارتباطاً وثيقاً بحضارات نيجيريا والسودان والنيل الأعلى في هذا العصر. وقد أيد هذا الرأي ما تم اكتشافه من مخلفات شبيهة بمخلفات هذه المنطقة في جبال الهجار وتبيستي. ولقد وجدت في جبل نفوسة وفي سهل الجفارة بمنطقة طرابلس أدوات يرجع تاريخها إلى مرحلة متأخرة من العصر الحجري الحديث لحضارة قفصة[20]. أما المنطقة الشرقية فهي بواحاتها وما فيها من أماكن

19- يؤيد هذه القسمة امتداد تأثير حضارة قفصة العليا إلى المنطقة الغربية من ليبيا عبر سهل الجفارة، وانعدام ذلك التأثير تقريبا في المنطقة الشلاقية، وذلك بالإضافة لخصوبة الجفارة من ناحية وقحولة المنطقة الجنوبية الشرقية لخليج سرت من الناحية الأخرى.

20- حضارة قفصة الدنيا والعليا انتشرت في مساحة تبلغ مائة وعشرين ألف كيلومتر مربع تقريباً على السفوح الجنوبية الشرقية لكتلة جبال أطلس، فهي بذلك حضارة داخلية

صالحة للسكن تشكل مثلثاً يقع إلى الشمال والشمال الشرقي من بحر الرمال الليبي وتمتد من الجبل الأخضر غرباً إلى الفيوم شرقاً ومن شاطيء البحر الأبيض المتوسط شمالاً إلى واحة الخارجة جنوباً. وفي هذه المنطقة نشأ طراز مستقر من الحضارة أقامته جماعات بشرية منتجة للغذاء منذ حوالي بداية الألف الخامس قبل الميلاد. وربما كان هذا التحول الحياتي إلى إنتاج المواد الغذائية بدلاً من جمعها ناجماً عن اتصال حضاري بين أبناء المنطقة الأصليين الذين كانوا يعيشون على الصيد وجمع الغذاء وبين جماعات طارئة منتجة للغذاء قدمت من جنوب غرب آسيا. وقد أكد المؤلفان: (C.B.M. Mc Burney) و (R.W. Hey)[21] قيام حضارة مستقلة إلى حد كبير في المنطقة الشرقية من ليبيا ابتداء من المراحل المتأخرة من العصر الحجري المتوسط على الأقل عندما كان إنسان هذه المنطقة لا يزال يعتمد في معيشته على الصيد وجمع المواد الغذائية وحتى نهاية العصر الحجري الحديث. والقول بقيام حضارة مستقلة في المنطقة الشرقية من ليبيا يجب ألا يعني أن تلك الحضارة كانت في عزلة تامة عن الحضارات المجاورة وإنما يجب أن يعني أنها كانت حضارة لها شخصيتها الخاصة بها وأنها كانت تؤثر في الحضارات المجاورة وتتأثر بها محتفظة بشخصيتها الخاصة طيلة الوقت. ونحن نلاحظ أن أدوات العصر الحجري الحديث التي وجدت في هذه المنطقة الشرقية من ليبيا كالسهم المفوّق والعصا ذات السطوح الثلاثة وصناعة الشظايا بالضغط تشبه نظائرها بقية ساحل الشمال الإفريقي. وأقوى تقارب بين حضارة هذه المنطقة والحضارات المجاورة إنما كان بينها وبين المرحلة الثانية من حضارة الفيوم بمصر. ولقد اشتدت النزعة الاستقلالية لهذه الحضارة في الفترة ما بين انتهاء العصر الحجري الحديث وعهد استبدال الأدوات الحجرية بأدوات من مواد أُخرى. ولذلك فإنها لم تتأثر خلال تلك الفترة تأثراً يذكر بالحضارات المجاورة، بل من الأرجح أن حضارة النيل المتقدمة على هذه

قامت بمعزل عن الساحل التونسي الذي كانت تقوم على امتداده حتى خليج قابس في الشرق وحتى المحيط الأطلسي في الغرب حضارة وهران المعاصرة لحضارة قفصة العليا.

21- McBurney, C.B.M. & R.W., Prehistoryy and Pleistocene Geology in Cyrenaica, Libya, Cambridge University Press, 1955, p. 261.

الحضارة الليبية أخذت عنها الكثير[22]. أما سكان الواحات من ليبيا الشرقية فقد كانوا – كما هم عليه اليوم – شديدي المحافظة، ولذلك فإنهم لم يقتبسوا إلا القليل من تقنية الحضارات المجاورة. ولقد سبقت الإشارة إلى أن الرسوم والنقوش الصخرية الموجودة في مختلف أرجاء الصحراء الليبية دلّت على أنه كان يسكن تلك الصحراء في العصر الحجري الحديث رعاة بقر مسلحون بالقوس والنشاب وأنهم وصلوا درجة معقولة من التقدم الفني وتعرضوا لعدة مؤثرات خارجية.

والمعروف أن صناعات العصر الحجري الحديث في شمال غربي إفريقيا نمت من صناعات العصر الحجري القديم الأعلى عن طريق التطور التدريجي وتحت مؤثرات أجنبية مصرية. والعصر الحجري القديم الأعلى عن طريق التطور التدريجي لشمال غربي إفريقيا هو آخر فترة من عصر ما قبل التاريخ إذ يبدأ بعد ذلك خاصة في المناطق الساحلية – العصر التاريخي الحقيقي بنزول الفينيقيين في مطلع الألف الأول قبل الميلاد في هذه المنطقة. وبتأثير الفينيقيين صارت دائرة العصر التاريخي تتسع ممتدة شرقاً وغرباً وجنوباً واستمرت كذلك في العهود الروماني والبيزنطي والعربي. أما المناطق الداخلية والصحراوية فقد ظلت في عصر شبه تاريخي (Protohistoric) يمكننا أن نقول إنه بدأ بعصر هيرودوتس (القرن الخامس ق. م.) وانتهى بالفتح الإسلامي[23]. وبالنسبة لبرقة نستطيع أن نقول إنها عاشت في العصر التاريخي منذ بدء احتكاكها بالحضارة المصرية في عهد الدولة القديمة ولكنها لم تدخل العصر التاريخي الحقيقي إلا بعد نزول الإغريق فيها في القرن السابع قبل الميلاد.

22- Wulsin, Frederick, R., The Pre-Historic Archaedogy of Northwest - Africa; Museum of American Archaeology and Ethnology, Haravard Jniversity, Vol; XIX – No.1, 1941, pp 96-99.

23- المرجع السابق، ص 99 وما يليها.